تجليات سلطة الكاتب من خلال النص المقامي في التحفة المرضية لابن ميمون

أ .الطاهر حسيني
جامعة الوادي

الملخص:

أن يكتب الكاتب و يقرأ المتلقي، فهذا يعني أن الكاتب مارس سلطة، سواء وضع لذلك إستراتيجية أو لم يضع. انطلاقا من هذه الفكرة، تأتي هذه المقالة للبحث في سلطة الكاتب و تجلياتها في النص المقامي عند ابن ميمون الجزائري، من خلال كتابه : < التحفة المرضية > (1).

Résumé :

Par le seul fait que l'écrivain écrit et le lecteur lit, l'écrivain exerce une autorité que ce soit par stratégie ou non. S'inspirant de cette idée, ce travail étudie l'autorité del'écrivain et ses manifestations dans le texte d'elmaquama chez IbnMimoun à travers son œuvre <<Ettouhfa El mardia>>

ليتم التواصل عن طريق النص الأدبي باعتباره رسالة ، مهما كانت طبيعته و مهما كان جنسه، لا بد من توفر ثلاثة أطراف أساسية لا يمكن أن يكون التواصل إلا بتواجدها ، نعني بذلك : الكاتب ، النص، و المتلقي - قارئا كان أو ناقدا - أو ما يعرف عند النقاد الحداثيين بالمرسل و الرسالة و المرسل إليه يضاف إلى ذلك ضرورة وجود شفرة التفاهم بين الباث و المتلقي << فكيفما كان شكل التبليغ فهو يفترض وجود باث و مستقبل أو مرسل و متلق للنبأ أو المعلومة،(information) و من أجل أن يفهم المتلقي الباث الذي يرسل النبأ أو المعلومة ، فإن وجود وسيط مشترك بينهما و هو الشفرة (le code) أمر ضروري>> (2).

إن كل طرف من الأطراف الثلاثة، يعتبر عمدة لا يمكن الاستغناء عنه من جهة، و لا يمكن أن تكون له قيمة إلا بتوفر الطرفين الآخرين من جهة أخرى.

إن هذه العلاقة المتشابكة بين هذه الأطراف الثلاثة، هي التي تجعل الأدب إبداعا رحبا يتسع لتنوع القراءات، و تعدد الدراسات، بل تجعله منبعا للإبداع الذي يوسع آفاق الدراسة و يثري روح النقد.

و مقامات بن ميمون التي نحن بصدد التعامل معها ، مبنية على الحدث التاريخي ، ما يجعلها ذات مرجعية تماشيا مع السياق التاريخي لمادتها، و معلوم أنه << إذا هيمنت

الوظيفة المرجعية التي لها علاقة بالسياق فالنص يأخذ موقعا بحيث يقوم بوظيفة مرجعية بالدرجة الأولى >>(3).

إن المقامات هنا تتكئ على مرجعية تاريخية في بناء متنها، ما حتم على صاحبها أن يجمع بين موضوعية رجل التاريخ و فنية رجل الأدب . ذلك ما يجعله يتجلى كعنصر أساسي في العملية الإبداعية، لا يمكن إغفال دوره، ولا تجاوز الوقوف عنده ؛ باعتباره هو نفسه الراوي و << موقع الراوي في السرد له أهمية كبيرة من حيث أنه يوجه الخطاب السردي الوجهة التي يريدها >> (4) . و عليه فإن ركيزة الاهتمام في هذه الدراسة ستكون على المرسل، باعتباره هو الذي يقدم الخبر، و يروي الحدث . و التركيز عليه يجد ما يبرره في طبيعة النص الذي نحن بصدد دراسته ، والعصر الذي ظهر فيه ؛ المقامة السيرة - إن صح هذا التعبير- في العهد العثماني. فنحن أمام نص تراثي، و كاتب تقليدي، لن يفرط في فرض سلطته ، سواء قصد ذلك أو لم يقصد، فالإنسان عندما يسرد حكاية ، أو يروي خبرا فهذا يعني أنه مارس سلطة ، لان الجميع أمامه ينظرون و يستمعون إذا كان في مقام المشافهة ، و يقرؤون و يؤولون إذا كان في مقام الكتابة.

لقد سعى بن ميمون من أجل أن يفرض سلطته، إلى أن يكسب القارئ و يجعله متقبلا لما يسرد عليه من أحداث، متفاعلا معه و مشاركا له في نظرته لما حوله ، لذلك خاطب فيه الجانب الروحي ، ليثير عواطفه الدينية ، ويحرك فيه الروح الإيمانية ، لعلمه أن القارئ - المعاصر له خاصة - إنما هو أكثر استجابة لمن يخاطب فيه هذا الجانب أعني الجانب الديني.

و من تجليات سلطة الكاتب في هذه المقامات ، أنه لم يبدأ سرد مقاماته بمألوف ما اعتاد العرب الافتتاح به، كحدثنا عيسى بن هشام، و حدث الحارث بن همام، أو يروى أو يحكى، و قديما << كان معظم المقاميين يبتدئون السرد في مقاماتهم إما بعبارة " حدثنا " و إما بعبارة" حدث " و إما بـ " حكى "واما بـ " أخبر" و إما بـ "حدثني" وهي أداة سردية كانت تصطنعها شهرزاد في "ألف ليلة و ليلة >> (5) .

تلك علامة فارقة بين المقامات الميمونية و المقامات العربية التقليدية، فابن ميمون إذا لم يتخذ راويا يروي الأحداث ليوصل من خلاله فكرته، بل أصر على أن يكون هو الذي يقوم بهذا الدور ليقدم سيرة محمد بكداش بنفسه، ومن خلال زاوية نظره، وهو بذلك مارس سلطة فوقية، من منطلق أنه العالم بالخبر أو الحدث ، بينما القارئ جاهل به تماما.

إن سلطة الكاتب هنا نابعة من أنه هو المصدر الأساسي للخبر باعتباره المصدر الوحيد الذي تصدر عنه الأخبار، و هو الوحيد الذي يروي الوقائع و الأحداث.

ولينجح الكاتب في بسط سلطته، و التحكم في قارئه، انطلق في المقامات من بنيتين أساسيتين : بنية النبوءة، نبوءة والد بكداش بأن ابنه سيكون على المغرب أميرا(6) ، و بنية الرؤيا التي رآها إبراهيم بن سنان الذي رأى فيما يرى النائم أن النبي (ص) طلب منه أن يبشر بكداش أنه سيموت على حسن الخاتمة (7).هذان البنيتان حوتهما المقامة الأولى، و يبدو أن الغرض من إيرادهما و التركيز عليهما ، هو أن يبقى القارئ متابعا للأحداث منتظرا ما سيقوم به البطل و ماذا سيصدر عنه حتى يصل إلى النهاية التي بشر بها.

و سواء كان القصد من الكاتب أو لم يكن فإننا أمام طريقة في عرض الأحداث تفرض على القارئ أو المتلقي المواصلة و هي طريقة يمكن أن نطلق عليها (طريقة البداية من النهاية) إذ أنها << ترسم نهايتها في بدايتها و يصبح دور البطل هو قطع هذه المسافة التي تفصل البداية عن النهاية > (8)

إن ما يلفت الانتباه في هذه المقامات ، هو أن الكاتب بسط سلطته كذلك على الشخصيات- على قلة تأثيرها-بتدخله في كل صغيرة و كبيرة ذات صلة بها ؛ إذ نجده يذكر ما يصدر عن هذه الشخصيات ، و لا يتركها تتكلم أو تحاور ولا يسمح لها أن تتدخل في الحدث أو تعلق عليه ، لذلك قل الحوار حتى في المواطن التي كان يجب أن يكون فيها الحوار مسيطرا.

ففي المقامة الخامسة مثلا، توفرت الظروف التي تساعد على اعتماد الحوار الثنائي بتوفر شخصيتين حاضرتين في نفس المكان ، و في نفس الزمان ، و مشاركتين في الحدث : شخصية محمد بكداش ، و شخصية الغوث محمد بن سيدي السعيد الذي التجأ إليه عندما غرب من الجزائر.

فبكداش << ذهب إلى الغوث الفريد السيد محمد بن سيدي السعيد في(المنشية) في موضع يقال له : (أعرض)، فلما دخل إليه أقبل عليه و لم يعرض، و حياه بتحية، فردها بأحسن منها سنية ، و قال : مرحبا بالذي دخل من الباب، تسر الأعداء به و الأحباب ، و تنكب الأعادي باقتراب ، و النصر مع سعودك في اصطحاب ... فأوقع الماضي موقع المستقبل ...>> (9).

إن قوله : (حياه بتحية فردها بأحسن منها سنية)، عوض أن تكون هكذا سردا كان يمكن أن تكون بداية حوار متبادل بين الشخصيتين ، يقطع روتين السرد، و يضفي على النص حركية تجعله أكثر فاعلية و ديناميكية في التواصل ، غير أن

الكاتب أصر على أن يكون ذلك بهذا الشكل ليبقى ممسكا بالخيط الذي يوجه به الحدث توجيها يخدم إستراتيجيته، و الهدف الذي حدده مسبقا و المتمثل في تعظيم شخصية بكداش ،فهو يعلم أن الصيغة الحوارية تخفف << من حدة أحادية رؤية أو وجهة نظر الراوي العالم بكل شيء و المسير لشخصياته بحرية تامة >> (10). وذاك ما لا يريده بن ميمون ، و ما تدخله بقوله : فأوقع الماضي موقع المستقبل إلا دليل آخر على سعيه لبسط سلطته باعتباره يفرض على المتلقي أن يفهم أن المقصود بـ "الباب" هو باب الجديد الذي دخل منه بكداش بعد ذلك الي الجزائر منتصرا .

إن بن ميمون على امتداد المقامات جميعها لم ينقل خبرا عن أي كان ، بل كان في جميع الأحوال ، هو المصدر الوحيد للخبر لذلك انعدمت في المقامات عبارات مثل بلغني أو حدثني باعتبار أن الكاتب هو الشاهد على الأحداث و الراوي للأخبار و مثل هذا الراوي << نجده في أغلب الإنتاج السردي الواقعي... حيث يحكي كل شيئ بطريقة توحي بأنه كان شاهدا على كل الأجداث النفسية و الاجتماعية و الثقافية التي يحكيها >>(11) . وهذا يعني أن أحداث المقامات إنما هي أحداث واقعية ، قد يكون الكاتب مشاركا فيها بطريقة أو بأخرى.

لقد بقي الكاتب وفيا لنهجه ، مصرا على بسط سلطته ،حتى من خلال إدماجه شخصيات جديدة على مسرح الأحداث . قال الكاتب في المقالة الثالثة متحدثا عن الحاج مصطفى آهجي الذي << ساد و طغي في البلاد ، و استوي عنده العالم و الجاهل ، و صار الشرع سواء النبيل فيه و الخامل، و عامل الناس أسوأ معاملة، و أعطاهم المقابحة عوضا عن المجاملة، و أهمل حال الدولة و ناطها و فرط في مصالحها و ما حاطها و تجبر و عتا ، و أتى بذلك ما أتى ، و اشتغل بنهب الأموال ، و إجراء المظالم في كل حال >>(12) لقد قدم هذا المقطع شخصية مصطفى آهجي بصورة سلبية بكل المقاييس، استطاع من خلالها أن يخلق ظاهرة فنية ، تمثلت في ثنائية التقابل التي وظفها من منطلق تقليدي " إن الأشياء بأضدادها تفهم " وقد سمحت له هذه الثنائية أن يرسخ في مخيلة المتلقي شخصية بكداش بصورة ناصعة مناقضة تماما لشخصية مصطفى آهجي.

و لما كانت تجربة بكداش في نظر الكاتب << تجربة فردية لا يمكن إعادة إنتاجها إلا من خلال إدراجها داخل نسق عام هو تكثيف لمجموع السلوكيات الممكنة >>(13) . فإن إدراج شخصية آهجي بالصورة التي رأينا ، ما كان إلا من أجل هدف واحد هو محاولة إبراز شخصية بكداش في صورة البطل الوحيد ، الذي يجب أن نعلق عليه الأمل، و لذلك وجب << نفي أحد الحدود المشكلة لبنية التناقض >>(14) .وهذا يعني ضرورة إسقاط صورة مصطفى آهجي من مخيلة المتلقي، ليفسح المجال لترسيخ

صورة بكداش عنده ، و ما ذلك إلا مظهر من مظاهر التسلط، فالكاتب هنا لم يترك للمتلقي إلا خيارا واحدا هو نبذ آهجي و إسقاط صورته ، و الاعتراف بفضل بكداش و الاقتناع بأنه المنقذ فعلا .

بل أكثر من ذلك فقد أظهر الكاتب شخصية بكداش شخصية كاملة لا نقيصة فيها ، ذلك ما يقف عنده القارئ للمقامات حيث لا يجد - على امتداد المقامات جميعها - أي سلبية صادرة عن هذه الشخصية أو نسبت إليها أو قيلت فيها ، فحتى ما قاله فيه حساده ذكره الكاتب مجملا في قوله : << فلما أبصره خاصة الأمير(15) وصاروا ينسبون إليه الفحشاء و نبذوه.. فدعوا الأمير إلى رفضه، و سعوا إلى حل مبرم عهده و نقضه >>(16). مقابل هذا فابن ميمون كان قد فصّل، و أطنب، في تعداده لمساوئ مصطفى آهجي وما ذلك إلا دليل على انحياز الكاتب لشخصيته المركزية التي من أجلها كتب هذه المقامات. و قد كرس الكاتب هذا الانحياز من خلال توجيه القارئ الوجهة التي يريدها بتعليقاته التي تدخل بها تدخلا مباشرا أدي في كثير من الأحيان لقطع وتيرة سرد الأحداث.

ففي المقامة الخامسة توقف الكاتب عن سرد الحدث و أبرز حزنه و ألمه << أن الذي أصابه ثقل علينا لا عليه عبئا ، وعظم عندنا لا عنده رزءا >> (17) و دعا لبطله << نسأله تعالى أن يجعل هذه الحادثة آخر حوادثه، و أعظم موارثه، حتى يستديم عزه في نعم سابغة ، تنعم باله و خاطره، و تقر عينه و ناظره، و تلحظه خطوب الدهر وهو منها في حماية مكينة ، و درع من الحماية رصينة >>(18) . و نفس الظاهرة نجدها في نفس المقامة في قوله :<< و فشا خبرهم في البلاد ، فأعمى الله و أصم أهل الفساد ، و بقوا كأنهم مقرنون في الأصفاد ، ألم يعلموا﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾(19) حتى أشار صاحب الرأي السديد بالدخول صباحا >>(20).

الظاهر أن بن ميمون لا يريد من هذه المقامات إلا شيئا واحدا هو أن يقنع القارئ بل يجبره على الاقتناع بوجهة نظره، و برؤيته للعالم من حوله، ومن أجل ذلك اعتمد على الاستشهاد بالقرآن و الشعر و الحديث تماشيا مع << تقاليد النثر العربي في جميع عصوره ، بما في ذلك العصر الذي طغت فيه الصنعة >> (21) . وغير خفي على الدارسين و المهتمين أن << الشاهد مهما كان نوعه ، يقدم الحجة و إمكانية الإقناع و التأثير و الوصول إلى عقل القارئ -أو قلبه على السواء - بسهولة و يسر> (22) .

و من نماذج الاستشهادات القرآنية التي وظفها الكاتب من منطلق ممارسة سلطته على المتلقي، بغرض التأثير فيه، و محاولة توجيه فكره، ما جاء في المقامة السادسة

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ (23).الآية كما نرى تقر حقيقة أن النصر من عند الله تعالى، وهو بذلك يريد أن يبرز بكداش منصورا بأمر من بيده النصر، حتى لا يتجرأ أحد على أن يشكك فيه أو يتخاذل في الاعتراف به، أو في إتباعه، و حرصا من الكاتب على أن يفرض وجهة نظره، دعم هذا الاستشهاد بآخر من الشعر :

وما ضرنا أنا قليل و جارنا عزيز و جار الأكثرين ذليل (24).

و معلوم أن للشعر مكانته في القلوب، وله تأثيره في النفوس، و ذاك ما وعاه الكاتب جيدا، فكان اعتماده عليه كبيرا إلى درجة لا نكاد نجد مقامة تخلو منه. فقد وظف الكاتب ما قيل من مدائح شعرية، و استعان بما كتب من تقاريض نثرية في محمد بكداش، الذي أصبح عند كثير ممن استشهد بشعرهم، أو برسائل نثرهم، خليفة رسول الله، يتجلى ذلك في المقامة الثالثة عشر في ما كاتبه به أبو زيد محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن إبراهيم << و بعد : مما وجب إعلامكم ببشائره لعظيم قدره ، و فقد نظائره ما أجري الله بوارد الإلهام ، و تحقيق سيرة النبي عليه السلام على لسان والدنا - حفظه الله - الشيخ المسن بتحقيق إمامتكم ، و الشاهد بمنصة جلالكم ، وذلك انه أملى علينا لسبعة عشر يوما خلت من رمضان أبياتا جرت على لسانه بوارد الجبر، الذي هو نوع من المكالمة و المحادثة في طريق القوم على بساط المشاهدة و العلم اليقيني و نص الأبيات التي أملاها علينا:

الله أعلم ما أقاسي من جوى عمن بوهران من ذوي الأحلام

يا أمير جيش قد علينا تطاولت أيام فتحك لم تحن بتمام

فالله ينصركم و يشكر فعلكم و يزيدكم فخرا لدى الأمم

و لما أنشدنا هذه القطعة سألناه و قلنا له ما أردت بقولك : << وتزيدكم فخرا لدى الإمام >> فقال: الإمام هو أميرنا و خليفة الرسول علينا فه>ه الشهادة من هذا الولي هي بيت القصيد البشرى لكم لان الإمامة هي الخلافة و لا يتصف بها إلا من كملت أحواله، و صدقت في الله أقواله و أفعاله>>(25).

(هي بيت القصيد) هذه الجملة الواردة في القول السابق، تبرز بوضوح أن الكاتب وظف هذه التقاريض النثرية، و القصاند الشعرية، من أجل أن يضع بين يدي القارئ شواهد مختارة متطابقة مع رؤيته، تعينه على إقناع هذا القارئ بوجهة نظره، و تسهل عليه التحكم فيه و توجيهه.

من خلال ما تقدم، نلاحظ أن الكاتب مارس سلطته من خلال الرؤية من الخلف، باعتباره راويا مركزيا ، قام بما يقوم به << الحاكم المركزي الذي يملك

كل زمام السلطة في يده و تسير كل مؤسسات السلطة وفق رغباته و أفكاره الإيديولوجية >> (26) . وكان نتيجة هذه السلطة التي فرضها الكاتب ،أو أراد فرضها، أن شخصية محمد بكداش لم تخرج عن الإطار الذي رسمه لها سلفا، وهي بذلك أصبحت شبيهة بشخصيات المقامات الهمذانية التي كان أبطالها - كما يرى يوسف نور عوض - لا يخرجون عن الإطار الذي رسمه لهم الكاتب.

الهوامش:

1- كتاب تضمن مجموعة من المقامات بلغت ست عشرة مقامة ،أرخ فيها محمد بن ميمون لحياة محمد بكداش الداي الذي حكم الجزائر بين (1705-1710م) فعرف بشخصيته ، و خلد سيرته ، و عدد مناقبه .

2- عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين و إلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، ص:21

3- علال سنقوقة، المتخيل و السلطة، نشر رابطة الاختلاف، ط 1، 2000، ص: 21

4- المرجع نفسه، ص:206.

5- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة و الفنون و لآداب - الكويت ديسمبر/كانون الأول ،1998 ص:169.

6- ينظر محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقيم و تحقيق محمد بن عبد الكريم ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط.2 ،ص:115.

7- ينظر المصدر نفسه، ص:118.

8- حسين خمري ، فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف، الجزائر ،ط1 ، 1985.

9- محمد بن ميمون ، المصدر السابق، ص:137.

10- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق، الجزائر، ط. 1، 1999، ص:114 .

11- علال سنقوقة، المرجع السابق ، ص:207.

12- حمد بن ميمون، المصدر السابق، ص:123.

13- سعيد بنكراد ، مدخل إلى السميائية السردية، منشورات الاختلاف، ط 1 ، 1994، ص:36.

14- المرجع نفسه، ص:39 .

15- يقصد الداي حسين خوجة الشريف .

16- محمد بن ميمون ، المصدر السابق، ص:135 .

17- المصدر نفسه، ص:136.

18- المصدر نفسه، ص:137.

19- سورة الفجر الآية:14.

20- محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص:138.

21- إبراهيم صحراوي، المرجع السابق، ص:96

22- المرجع السابق ، ص : 97.

23- سورة آل عمران ، الآية 160.

24- البيت للسموأل بن عادياء .و هو شاعر جاهلي(ت حوالي560 وهو الذي يضرب به المثل في الوفاء

فيقال:(أوفى من السموأل)) وقد اشتهر بقصيدته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه *** فكل رداء يرتديه جميل.

25- محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص :230.231.